المحاضرة الرابعة ـــــ 4 ـــــ

(تابع للموضوع السابق)

(ج). تقسيم القران وترتيب الآيات.

يتبنى نولدكه في الجزء الأول من كتابه التقسيم المعهود للقران مكي ومدني لكنه يوزع السور المكية الى ثلاث فترات معتمدا على صفات أسلوبية ومضمونيه تجمع سورالمجموعة الواحدة:

(1). الفترة المكية الأولى: أنها تتصف عن سواها بقصرها وبلغتها الشعرية التسبيحية والتي تهدف الى تثبيت مضمون الرسالة واقناع المشركين بها.

(2). الفترة المكية الثانية: وتتميز سور الفترة المكية الثانية بالتحول في الأسلوب حيث يغلب عليها طابع الوعظ والإنذار كما تظهر منها مقاطع طويلة تسترجع أحداثا وشخصيات من الكتاب المقدس كأمثلة لصدق الله في وعده ووعيده.

(3) سور الفترة المكية الثالثة: أما سور الفترة الثالثة فتميز بشدة لهجة الوعيد والتهديد الموجه ضد الكافرين.

ويجد أن السور قد وضعت متضاربة من حيث ترتيبها الزمني معتمدا في ذلك على النقل التفسيري والتاريخي حيث وضح أن لوائح ترتيب السور تضع سور قديمة جدا خلف سور متأخرة وتجعل سور لا شك أنها مكية مدنية. وقد نعت السور المكية بالقطع ذات اللغة والأفكار المتأججة المقتربة من السجع الصريح، بينما وصف السور المدنية بالقطع الهادئة الطويلة ذات السياق العاطفي الايقاعي الشبيه بالنثر، ووصف النبي هنا باعتبار حاله كحال كل كاتب تتميز لغته في فترات مختلفة بواسطة عبارات متفق عليها وكلمات معينة مستحبة ومصطلحات تساعد على ترتيب السور ترتيبا زمنيا، بواسطة مراقبة النظم واللغة بالمعنى الأوسع ولاسيما مراقبة تماسك الأفكار.

والهدف الكبير الذي يتبعه محمد في السور المكية هو دعوة الناس الى الايمان بالله الواحد الحق، وما لا ينفصل عن ذلك من الايمان بقيامة الأموات والحساب في يوم الدين، لكنه لا يسعى الى اقناع عقل سامعيه بذلك بواسطة البرهان المنطقي، بل بالعرض الخطابي المؤثر على الشعور بواسطة المخيلة. كما أن وصفه سعادة الاتقياء الأبدية وعذاب الخطأة في الجحيم يعتبر من أقوى الوسائل التي ساعدت على نشر الإسلام بواسطة التأثير الهائل الذي مارسه على مخيلة الناس البسطاء الذين لم يسبق لهم أن تعرفوا منذ صباهم على صور لاهوتية مشابهة.

وعرضت هذه السور بأساليب مختلفة والتي قسمت حسب ثيودور الى مجموعات، سور قديمة جياشة المشاعر، وأخرى متأخرة تقارب أسلوب السور المدنية، ومجموعة أخرى هي حلقة وصل بينهما.

قام المستشرق" **وليم موير"** في الجزء الثاني من كتابه حياة محمد بتقسيم السور الى خمس مراحل متبعا تأريخا يراه تيودور غير مرسخ وهي:

(1). سور نزلت قبل سورة العلق أي قبل البعثة.

(2). أقدم سور حتى جهر محمد بدعوته.

(3) . حتى العام السادس بعد البعثة.

(4). حتى العام العاشر بعد البعثة.

5. حتى الهجرة

أما المستشرق "**هيرشفلد** " في كتابه بحوث جديدة فيقسم السور حسب الصيغة والمادة الى سور توكيدية وواعظة وقصصية ووضعية تشريعية.

الفترة الأولى

العلق المدثر المسد قريش الكوثر الهمزة الماعون التكاثر الفيل الليل البلد الشرح الضحى القدر الطارق الشمس عبس القلم الأعلى التين العصر البروج المزمل القارعة الزلزلة الانفطار التكوير النجم الانشقاق العاديات النازعات المرسلات النبأ الغاشية الفجر القيامة المطففين الحاقة الذاريات الطور الواقعة المعارج الرحمان الإخلاص الكافرون الفلق الناس الفاتحة.

قوة الحماس الذي حرك النبي في السنوات الأولى جعله يرى الملائكة الذين أرسلهم الله اليه مثل أنبياء إسرائيل العظام في العهد القديم والذي تمخض عنه كلام جليل ذو نبرة خطابية تحتفظ بلونها الشعري الكامل، محركا إيقاعا ذو جرس عفوي جميل، مشاعره وظنونه تنطق عن نفسها أحيانا بواسطة غموض المعنى، وما يميز هذه الفترة كلمات القسم التي ترد فيها كثيرا (30 مرة مقابل مرة واحدة في السور المدنية في سورة التغابن) حيث يقسم أن أقواله حق مستدعيا كشهود الظواهر الطبيعية، وبوصفه رسول الله يقسم بالوحي "يس، ص، الزخرف، الدخان، ق، الطور، القلم" وبالقيامة "القيامة، البروج ".

وعن الحديث عن سورة العلق باعتبارها أول سورة تلاها محمد، يقدم تيودور رأي هيرشفلد القائل بأن بعض آياتها مطابقة لما جاء في سفر أشعياء، ويفسر أن سبب نشوء هذه السورة هو قضاء محمد حياة طويلة في العزلة والوحدة صار فيها بواسطة التأمل والصراع الداخلي في وضع من الاضطراب الهائل أدى به الى الجهر بالحقيقة التي اتضحت له واكتسبت الدعوة في نفسه شكلا ثابتا كوحي يطلب فيه الله منه بأن يبلغ قومه باسم سيده خالق البشر ما انتهى اليه من الكتاب السماوي.

كما اعتبر المعوذتين شبيهة بالتعاويذ الوثنية وبها يكون النبي قد وقع في شرك الخرافة حيث شارك الإسلام الوثنية الاعتقاد بوجود أرواح شريرة معادية للبشر لكنه لم يلجأ لطلب العون الى إله اخر غير الله الواحد، ثم توقف في سورة الفاتحة واعتبرها أحجية يصعب حلها كما أن الكلمات "سبعا من المثاني" قد ترتبط بها فعلا كما يزعم المفسرون المسلمون، ومعنى مثان ليس هنا عادات أو آيات، والاعتقاد الصحيح المقبول أن الكلمة تتصل بالكلمة اليهودية مشنا والآرامية مثنيثو بمعنى التقليد.

الفترة الثانية

القمر الصافات نوح الانسان الدخان ق طه الشعراء الحجر مريم ص يس الزخرف الجن الملك المؤمنون الأنبياء الفرقان الاسراء النمل الكهف.

هذه السور لا تحمل أي طابع مشترك، فبعضها يشبه سور الفترة الأولى والبعض الاخر يشبه سور الفترة الثانية، ويلاحظ في هذه السور الانتقال من الحماس العظيم الى قدر أكبر من السكينة في السور المتأخرة التي يغلب عليها الطابع النثري. وقد تم هذا الانتقال بصفة متدرجة، حيث كان على مخيلة محمد أن تتخلى أكثر فأكثر عن الاندفاع والاصالة، فكلما ازداد اهتمامه بالحاجات العملية الناشئة زاد التأمل الهادئ وحل محل الخيال العنيف والاثارة والحماس. ويصف تيودور هذه السور بالمتكدسة غير المرتبة منطقيا والمملة وغير المقنعة، حيث تتضمن مناقشات مستفيضة للعقائد لاسيما لمعرفة الله من خلال الآيات المنتشرة في الطبيعة، وترد إضافة الى ذلك قصص طويلة عن حياة الأنبياء السابقين لإثبات التعاليم وانذار الأعداء ومواساة الاتباع، حيث يترك النبي رسل الله القدامى يتكلمون بأسلوبه الخاص عن أدق التفاصيل الثانوية، واعتبر تيودور سورة الكهف من الاساطير ومن صلب الادب العالمي المعروف في ذلك العصر وربما اتبع محمد في تسلسل المقاطع الروايات المنقولة.

الفترة الثالثة

السجدة فصلت الجاثية النحل الروم هود إبراهيم يوسف غافر القصص الزمر العنكبوت لقمان الشورى يونس سبأ فاطر الأعراف الاحقاف الانعام الرعد

ما تكون في الفترة الثانية من أسلوب ولغة ومعالجة للمواضيع يبرر الفترة الثالثة بشكله النهائي، اللغة مطنبة وواهية نثرية بتكرار لانهاية له، والبراهين تفتقر الى الوضوح والحدة ولا تقنع الا من يؤمن سلفا بالنتيجة النهائية، وهي مشوشة في كثير من الأحيان وتعامل بإهمال شديد وتقتصر على أسهل الاشكال: واو نون، ياء نون، وتخاطب ب "**يا أيها الناس**".

(4)سور الفترة المدنية:

البقرة ، البينة، التغابن، الجمعة، الأنفال، محمد، آل عمران، الصف ، الحديد،النساء، الطلاق ، الحشر، الأحزاب، المنافقون، النور، المجادلة، الحج، الفتح، التحريم، الممتحنة، النصر ، الحجرات،التوبة، المائدة

من أجل تفسير النجاح الذي لقيه الإسلام في يثرب الذي لا مثيل له ، يجب الإشارة الى أن أهل المدينة كانوا حتما مطلعين على أهم تعاليم الإسلام بواسطة اليهود الذين تواجدوا هناك بكثرة، والقبائل المسيحية التي كانت تقيم في جوار المدينة ويربط بعضها بأهل المدينة أواصر قربى.

فالتراث الإسلامي كان على حق حين أعلن أن الجو الديني العام الذي ساد في المدينة كان الدافع الرئيس لتقبل محمد فيها، ولم يكن هم أهل المدينة منذ البداية أن يحولوا سلطة محمد الروحية الى قيادة سياسية، لكن هذا التطور حتمته الظروف التي استغلها النبي بذكاء حيث قام بسرد أحداث وصراعات ومعارك، كما وضع تشريعات وأحكام لضبط الحياة داخل المدينة لتنظيمها.

تحدث تيودور كذلك عن أجزاء أصيلة من القران الكريم لكنها غائبة في مصحف المسلمين، حيث جاء عن الترمذي في كتاب المناقب أن أنس بن مالك قال عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" لو أن لابن ادم واد من مال لابتغى اليه ثانيا ولو أن له ثانيا لابتغى اليه ثالثا ولا يملئ جوف ابن ادم الا التراب ويتوب الله على من تاب" ثم تطرق الى مجموعة من الآيات المختلفة الي أوردت هذا الحديث واعتبر أنها اية من سورة براءة لم تكتب وربما تكون جزء من سورة ضاعت. كما ان من الآيات ما أسقط كما جاء في احدى المسبحات" يا أيها الذين امنوا لم تقولون ما لا تفعلون فتكتب شهادة في أعناقكم فتسألون عنها يوم القيامة"... وهكذا فعل في مجمل الأحاديث القدسية.

تم يختم بالقول أن الفضل الرئيس في تماسك النقل يعود الى النبي نفسه، فهو قرر على الأرجح منذ اللحظة الأولى التي أيقن فيها أنه يتلقى اشعارات من كتاب سماوي أن تكون هذه وثيقة صادقة غير محرفة للإرادة الإلهية في مواجهة كتاب اليهود والنصارى المقدس، لذا اهتم لزاما بالتثبيت الخطي لما أوحي به اليه ليحفظ من الاندثار والتحريف، والنقل لا يسمي فقط الكتاب الذين كان محمد يملي عليهم الآيات، بل يزودنا بمعلومات هامة عن شكل هذه المكتوبات، أما بيانات الله الأخرى فلم تدون رسميا، وتركت معرفتها لصدق النقل الشفوي.

رد العلماء على أقوال المستشرق نولدكه

حتى يتحقق للمستشرقين انكار الوحي أصبحوا يرددون أن ما جاء به النبي محمد مجرد ابداع ذاتي أو إشراق روحي أو إنجاز أدبي أو مشروع محمدي أو توصل فكري أو املاء إنساني، أما نظرتهم حول من نزل عليه الوحي فإنها تتمثل في أن:

- بعظهم عده قائد وزعيم فذ.
- وبعظهم جعله في مصاف المصلحين الاجتماعيين.
- وبعظهم عده أحد عباقرة العالم الذين ينذر أن يحظى العالم بمثلهم.
- وقلة من أبرز شخصيته رسولا.
- وأقل منهم من وصفه أنه نبي أوحي اليه بالإسلام.
- ومنهم من أنكر النبوة

وقبل التطرق الى اراء بعض علماء المسلمين لا بأس في استعراض اراء بعض ردود المستشرقين:

يقول المستشرق ادوارد مونتيه: "**كان محمد نبيا بالمعنى الذي يعرفه العبرانيون القدماء، ولقد كان يدافع عن عقيدة خالصة لا صلة لها بالوثنية"**

يقول المستشرق كارل بيكر: "**لقد أخطأ من قال ال نبي العرب دجال أو ساحر، لأنه لم يفهم مبدأه السامي، إن محمد جدير بالتقدير ومبدأه حري بالاتباع، ليس لنا أن نحكم قبل أن نعلم، وإن محمدا خير رجل جاء الى العالم بدين الهدى والكمال"**

قال المستشرق السويسري حنا: " **بقدر ما نرى صفة محمد الحقيقية بعين البصيرة والتروي في المصادر التاريخية أن نتهمه فيه**

وقد قام مجموعة من علماء المسلمين بالرد على طرح تيودور نولدكه وأتباعه من المستشرقين الذين لم يقيموا القران ككتاب منزل بل كنص وضعه النبي محمد صلى الله عليه وسلم نتيجة إلهام متفاعلا مع التطورات الدينية والاجتماعية والسياسية.

(1). محمد عبد الله دراز

يرى دراز في كتابه النبأ العظيم أن نسبة القران الى تعليم البشر صار مروجا باسم "الوحي النفسي" الذي يصور النبي صلى الله عليه وسلم على أنه ذو خيال واسع وإحساس عميق طغى عليه الوجدان حتى خيل اليه أنه يرى ويسمع شخصا يكلمه، وهذا باطل بجميع المقاييس حيث أن الحال الذي يؤول اليه الرسول صلى الله عليه وسلم عند تلقيه الوحي حال غير اختياري وعارض غير عادي، فهو قوة خارجية تتصل بالنفس المحمدية حينا بعد حين وهو لا محالة قوة عالمة لأنها توحي له علما، وقوة أعلى من قوته لأنها تحدث في بدنه تلك الاثار العظيمة كما جاء في سورة النجم "علمه شديد القوى"، وهي قوة خيرة معصومة لأنها لا توحي إلا بالحق ولا تأمر الا بالرشد.

فأي مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد الزعامة...أي مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخا، على حين أنه يستطيع انتحالها ويزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحدا يعارضه ويزعمها لنفسه.

فنسبة محمد صلى الله عليه وسلم القران الى الله لا تكون احتيالا منه لبسط نفوذه والا لم لم ينسب أقواله كلها الى الله، كما أن بعض أي القران ورد مخالفا لطبع الرسول، الى درجة معاتبته له في بعض المسائل المباحة، وشخصية الوحي منفصلة عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وكثيرا ما كان موقف النبي من النص القرآني موقف المفسر الذي يلتمس الدلالات ويأخذ بأرفق الاحتمالات، وتوقفه أحيانا في فهم مغزى النص حتى يأتيه البيان يدعو الى التساؤل عن هذا العاقل الذي توحي له نفسه كلاما لا يفهم معناه، وتأمره أمرا لا يعقل هو حكمته ... و هذا من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل و مأمور لا امر.

ثم يضيف: "ذلك هو مبلغ العلم في وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدي اليه البحث العقلي المستقيم. وليس بالمؤمن المقتصد حاجة الى أكثر من هذا القدر في إرضاء شهوته العلمية، ولا في تثبيت عقيدته الدينية، فمن شاء المزيد من وصفها فليس سبيله الرجوع الى دلالات العقول، وإنما النقل الى الصحيح .

(2). رضا محمد الدقيقي

في كتابه "الوحي الى محمد بين الانكار والتفسير النفسي" -ترجمة وقراءة نقدية لكتاب "تاريخ القران" لتيودور نودلكه-، تمكن الدكتور الدقيقي من فرز مختلف الأخطاء التي جعلت تيودور يشكك في الوحي دون أن يعضد رأيه بدليل مقبول، ويقوم بتفسير خاطئ للكتاب والسنة ويعمد الى الاعتماد على نصوص ذات مصادر إسلامية وضعها في سياق جديد مختلف تمام عن السياق الذي وردت فيه .

كما أشار الى أنه قد بالغ في تضخيم الأعراض المصاحبة للوحي كالنوبة الشديدة وخروج الرغوة من فم النبي وصراخه والتي هي ادعاءات لا دليل عليها في أي حديث صحيح أو نص في المراجع الإسلامية، ولو كانت الأعراض المرتبطة بظاهرة الوحي أعراض لمرض نفسي عند النبي لما تعدى تأثيرها للآخرين، لكن هذا التأثير تعدى ليصل الى من يجاورون النبي كما أخبر عمر بن الخطاب بصفته شاهد عيان لظاهرة الوحي أن من يجلس بجوار النبي كان يسمع عنده أو عند وجهه أثناء الوحي دويا كدوي النحل، ولو كانت الاعراض المرتبطة بظاهرة الوحي أعراضا لمرض نفسي عند النبي لكانت مستمرة، ولما كانت مرتبطة بلحظة الوحي، لكن أعراض لحظة الوحي غير مستمرة، ومن يراجع أيا من كتب السنة يدرك هذا تماما.

وعن ترتيب السور فان نولدكه اعترف أنه لا يمكن وضع ترتيب زمني تقريبي للسور الا بقدر قليل من الدقة، وذلك بسبب انها نادرا ما تذكر فيها الاحداث التاريخية، كما أنه تغاضى عن النتائج التي لا تؤيد طرحه.

خاتمة

تفاوتت آراء المستشرقين حول مفهوم الوحي وتفسيراتهم له، كما تفاوتوا في تقويم الرسول والرسالة، الا أن منهم من تفهم روح الإسلام وانجلت له حقائقه، فأعلن إسلامه أمثال ليوبولد فاس ومارجريت ماركوس، ومنهم من لم يعلن إسلامه رغم إدلائه بتصريحات هامة تدل على أنه مسلم في ضميره مثل **برناردشو**، وكذلك الشاعر الألماني **" غوتيه"** ومنهم من بقي على ما كان عليه من العقيدة لأسباب لم يعلنوا عنها، ولا شك أن هؤلاء قد أسهموا في تجلية صورة الإسلام للغربيين وقاموا بالدفاع عنه، رادين على طعون ومزاعم الذين أساؤوا الفهم، أو تعمدوا التلبيس.

حاول تيودور نولدكه تصوير القران الكريم ككتاب عادي لنبي عادي لكنه فشل في إنجاح هذا التصور غير العقلاني، ولم يستطع تطبيق منهج نقد النص التاريخي والأدبي كما فعل في الكتاب المقدس، ولا تطبيق ما توصل اليه الطب وعلم النفس في ذلك الحين.

